

التعايش الديني في المجتمع النيجيري خلال القرنين التاسع عشر والعشرين : نيجيريا الجنوبية نموذجا⁽¹⁾

حبيب الله بلال أبنكندا

تعدّ القارة الإفريقيّة من أفضل قارات العالم التي تتعايش فيها الأديان، وقد يرجع السبب في ذلك إلى ما تضمّه القارة من تعدد قبلي وعرقي ودينيّ. ولئن كان هذا التنوع أحد مظاهر الثراء الذي تزخر به القارة، فهو أيضا أحد مصادر التوترات التي تجتاحها بين الفينة والأخرى، بسبب توظيفه بشكل لا يخدم بأي حال من الأحوال المصالح العامة للبلاد.

وبرغم ما شغلته مسألة التعايش من مساحة ضمن اهتمامات الباحثين منذ مرحلة ما بين الحربين العالميتين، فإنّ القارة الإفريقية عموما ونيجيريا خصوصا لم تحظ منه إلا بقدر محدود جدّا.

وتعتبر نيجيريا صورة مصغّرة لإفريقيا نظرا لحجم التنوع والاختلاف فيها، وقد تبلور هذا التنوع بأكثر وضوح مع تغلغل الإسلام

(1) بحث ماجستير في الحضارة الإسلامية للطالب حبيب الله أبنكندا من نيجيريا، نوقش بالمعهد الأعلى لأصول الدين في 2 جويلية 2004 أمام اللجنة المؤلفة من الأساتذة : محمد الأزهر باي (رئيسا) ومنجية السوايحي (مشرفا) وسامية اللجمي (عضوا).

والمسيحية في الأوساط النيجيرية التي كانت تشغلها الديانة التقليدية. فنشأت عن ذلك عائلات دينية متعددة مارست غالباً شعائرها دون اضطهاد أو إكراه شأنها في ذلك شأن جلّ المجتمعات الإفريقية. ولعلّ أحد أسباب ذلك يرجع إلى ما تحظى به الديانة التقليدية أو بعض عناصرها من مكانة لدى بعض معتنقي الإسلام أو المسيحية الجدد الذين لم يقطعوا صلتهم كلياً بديانة آبائهم، مما حال دون رسم حدود صارمة تفصل فصلاً تاماً بين مختلف العائلات الدينية، وجعل بذلك محاولات تنميط العلاقات القائمة بينها صعبة.

لقد عرف الإسلام والمسيحية انتشاراً كبيراً في نيجيريا خلال القرن التاسع عشر الميلادي إلا أنّ هذا الانتشار لم يقتصر بصراعات مفتوحة حاملة لعناوين دينية بارزة عكس ما تشهده المرحلة الحالية. إلا أنّه وبعد استقلال البلاد سنة 1960 باتت القراءات الدينية للنزاعات المسيطرة بحيث يتمّ خَفَضُ كل التوترات، وعلى نحو ما هو واقع في مناطق مختلفة من العالم، إلى الاختلافات الدينية، وبصفة خاصة بين المسلمين والمسيحيين.

إنّ العلاقة بين الإسلام والمسيحية قد تكون صراعية عندما تتصاعد العداءات كما تبدو حالياً في بعض مناطق وادي النيل كما تكون تنافسية حينما يتباريان في سوق مفتوحة من القيم ويندفعان في الدعوة إلى الدين دون الوصول إلى مرحلة العداء، وهو ما نراه في شرق إفريقيا مثل تنزانيا، كما يمكن أن يكونا في علاقة تآلف حينما يقبل كلّ منهما الآخر بوصفه حراً مستقلاً للوصول إلى حقيقة مقاربة وسبل مختلفة لغاية واحدة مشتركة، كما هو الغالب في بعض الدول. لكن هذه العلاقة الصراعية التنافسية أو الألفية عادةً ما تهددها ثلاث قوى هي : العقيدة،

والتوازن الاجتماعي والشرعية التاريخية في مجتمع ما. وهذه الثنائية الثلاثية (الصراع، والتنافس، والتعاون من جانب، والعقيدة، والمجتمع، والتاريخ من جانب آخر) في إفريقيا، تجد فاعليتها في إطار ثلاثية أخرى هي الميراث الثلاثي لإفريقيا القرن العشرين الناجم عن الحضارة المحلية، والحضارة الإسلامية ثم الحضارة الغربية.

هذه الاعتبارات في ذاتها على درجة كبيرة من الأهمية، إذ تلفت اهتمام الباحث إلى أن مطلب الشمولية في الأبحاث المتعلقة بالمجتمعات الإفريقية - والمجتمع النيجيري كواحد منها - صعب المنال، نظرا لوجود خصوصيات بعضها مرتبط بتفاعل هذه المجتمعات مع السياق العالمي، وبعضها الآخر مرتبط بفاعلية البنى القبلية داخلها إضافة إلى التنوع العرقي والديني.

إنّ الحذر المنهجي من السقوط في التعميمات المتسارعة يقتضي تركيز الاهتمام على دراسة مشكلات محددة مع ربطها في مرحلة ثانية بالدينامية العامة للمجتمع، وذلك ما حرصتُ على انتهاجه في هذا البحث الذي جعلت فيه العلاقة بين الأديان في جنوب نيجيريا محور اهتمامي. لنن بات أكيدا أنّ الصراع ظاهرة لازمت تاريخ البشرية، فإنّ الخطر اليوم يكمن في جعل الأديان ورموزها أداة لتصعيد النزاعات والحروب خدمة لمصالح سياسية واقتصادية مما يجعل الأديان تفقد جوهرها وغايتها في توحيد الناس على المحبة. ولعلّ هذا ما جعل بحث مسألة التعايش السلمي بين الأديان في إفريقيا ضرورة ملحة.

يدور هذا البحث حول إشكاليات متعددة يمكن تلخيصها في الأسئلة التالية : ما هي نوعيّة العلاقة القائمة بين الأديان في الديار النيجيريّة ؟

وهل هذه العلاقة مبنية على التسامح والتعايش السلمي أم علاقة هيمنة وتسلط وإقصاء للآخر ؟ أو بعبارة أخرى، هل تعني المحافظة على الهوية الدينية بالضرورة إنكار الآخر وإلغاءه عند الشعب النيجيري، وإلى أي مدى رسخت أسس التسامح والتعايش السلمي في المجتمع النيجيري ؟

جاء البحث في ثلاثة فصول، ويحوي أولها ثلاثة مباحث، أما الثاني والثالث فيشمل كل منهما أربعة مباحث.

تحت عنوان «التعدد الديني في نيجيريا الجنوبية : مظاهره وأسبابه» تناولت في الفصل الأول الديانة التقليدية : أصولها ومعتقداتها، ثم نموذج من بعض المعبودات، كما تناولت انتشار الإسلام والمسيحية إلى جانب العوامل التي ساعدت على انتشار هاتين الديانتين في المنطقة.

أما الفصل الثاني فقد خصّصته لدراسة «واقع الحياة الدينية في نيجيريا : آثار الماضي وتحديات الحاضر» حيث تناولت الوجود الديني داخل الحياة السياسية والقضائية والتعليمية ثم الاجتماعية.

بينما جاء الفصل الثالث بعنوان «دور المؤسسات في تكريس أسس التعايش السلمي» ويحتوي على أربعة مباحث :

- 1 - الملوك التقليديون والمحافظة على التراث الاجتماعي،
- 2 - موقف الحكومة من الأديان،
- 3 - المؤسسات الدينية والتعليمية ودورها في الحوار بين الأديان،
- 4 - أسباب التوترات الدينية والحلول المقترحة.

نظرا لطبيعة المادة التاريخية التي ارتكز عليها البحث اعتمدتُ على المنهج التاريخي الاستقرائي الوصفي. ولما كانت مسألة التعاشيش مسألة اجتماعية أكثر منها دينية فقد قمت بتشخيص الواقع كما هو دون تهميش أو إقصاء لأي كان.

استقيت جلّ مواد هذا البحث من مصادر ومراجع متنوعة، في مقدمتها كتب التاريخ مقالات نشرت في عديد من المجلات التي تصدر في أنحاء العالم. وتتمثل كتب التاريخ بالأساس في مؤلفات الكتاب النيجيريين عموما الذين يكتبون بالعربية خصوصا وفي مقدمتهم الكاتب النيجيري الشيخ آدم عبد الله الألوري (توفي 1992 م).

أما المقالات فبعضها من مجلة «Islamochristiana» التي تصدر في «إيطاليا» وأغلبها مكتوبة من قبل المسيحيين النيجيريين، والبعض الآخر من مجلات تصدر في الدول العربية، وهي بدورها من قبل المسلمين.

الملاحظ عموما هو أن الكتاب النيجيريين المسلمين والمسيحيين يتبادلون التهم بالتعصب في كتاباتهم مما يخرج القارئ عن حقيقة الواقع، فما نراه في الكتابات يختلف اختلافا كبيرا عن الواقع الذي يعيشه الشعب النيجيري. وقد حاولت قدر المستطاع عدم الوقوع في هذا المستنقع الذي كلف البلاد والعباد خسائر جمة.

هذا ولا يفوتني .. أن أتوجه بالشكر إلى المعهد الأعلى لأصول الدين بجامعة الزيتونة على قاعة «الإنترنت» التي وضعها على ذمة الباحثين، والتي استفدت منها بدرجة كبيرة أيام جمع المواد الأولى لهذا البحث.

أما النتائج التي توصلت إليها فيمكن تلخيصها في النقاط التالية :

أولا : أنّ الهوية في جنوب نيجيريا هي الهوية الوطنية قبل أن تكون الهوية الدينية، ففي حين تكون أولى أولويات أهل الجنوب المطالب الوطنية ترى على العكس المطالب الدينية لدى أهل الشمال تصل موقع الصدارة.

ثانيا : أنّ جنوب نيجيريا يستقطب أفضل عناصر المجتمع النيجيري الذي يقدر الحرية الدينية والتسامح الديني، إذ لا يوجد مجتمع نيجيري يعيش فيه أتباع المعتقدات التقليدية إلى جانب الديانات السماوية الجديدة كما وُجد في بلاد اليوربا (YORUBAS).

ثالثا : أنّ جُلّ التوترات النيجيرية تتركز في الإقليم الشمالي، وهي بين الأغلبية المسلمة والأقلية المسيحية تارة وبين الجماعات الصوفية والجماعات السنية تارة أخرى.

رابعا : أنّ هناك توترات لها طابعها القبلي والسياسي والاقتصادي بين الشمال والجنوب لكنها عادة ما تغطى بالغطاء الديني فتحوّل الأزمة بذلك من صراع قبلي إقليمي إلى صراع ديني عقائدي.

وأخيرا فإن هذه المحاولة تتنزل ضمن الأهداف الإنسانية التي دأبت جامعة الزيتونة على تحقيقها وهي تكوين الطلبة تكويناً متكاملاً يؤهلهم للمشاركة في بحث ومناقشة المشاغل التي تواجه المجتمعات الإنسانية عموماً والمجتمعات التي ينتمون إليها على وجه التحديد والنظر في الحلول الملائمة لها، ولست أرمي من وراء هذا البحث المتواضع إلا إلى خدمة الإنسان النيجيري فإن كنت قد وفقت فمن الله، وإن كان فيه خطأ فما إلى ذلك قصدت.